بالثقة فى هذا الإنسان ، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى حين نتوكل عليه ويُصوِّب لنا كل أمر ؟

ولكن إياكم أن تنقلوا التوكل من القلوب إلى الجوارح . ولذلك يقال : الجوارح تعمل والقلوب تتوكل . فأنت تحرث الأرض وتضع فيها البذور وترويها ،وهذا من عمل الجوارح لا بد أن تؤديه ، وبعد ذلك تتوكل على الله وتأمل فى محصول وفير ينبته الزرع ، فلا تأتى آفة أو ظاهرة جوية مثل مطر غزير أو ريح شديدة؛ فتضيع كل ما عملته ، وبعد إتقانك لعملك يأتى دعاؤك لله سبحانه وتعالى أن يحفظ لك ناتج عملك .

أما الذين لا يعملون بجوارحهم ويعلنون أنهم متوكلون على الله ، فنقول لهم : أنتم كاذبون ؛ لأن التوكل ليس من عمل الجوارح بل من عمل القلوب ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

لكن على مَنْ نتوكل ؟ إنك حين تتوكل على الحى الذى لا يموت، فلن يضيع عملك ، أما إن اتكلت على إنسان مثلك حتى وإن كان ذا قوة ، فقد تنقلب قوته ضعفاً ، وقد يكْرِهُك أو يُذِلُّكَ ، وقد تصيبه كارثة فيموت .

ويُبلِّغ الحق سبحانه رسوله أن يرد على الذين يفرحون فى مصائب المسلمين ليكشف لهم أن فرحهم بالمصيبة هو فرح أغبياء . فيأتى قوله الحق :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢ ﴾

وسبحانه وتعالى بهذه الآية إنما يرد على من يحزن إن أصابت الحسنة المؤمنين، ويفرح إن أصابتهم مصيبة ، فيأتى قول الحق سبحانه ليوضح : إن كل ما يصيب المؤمنين هو لصالحهم . ولذلك قال : ﴿ **لَن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا** ﴾ فلم يكتب سبحانه الأمور علينا ، بل لنا ، و"لنا" تفيد الملكية ؛ إما: تأديباً وإما تكفيراً عن ذنوب ، وإما اتجاهاً إلى الحق بعد زيغ الباطل ، وكل ذلك لصالحنا.

وجاء سبحانه بعد ذلك بالقول ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أى: تمهلوا وانتظروا وترقبوا نهايتنا ونهايتكم . أما نهايتكم فاستدامة عذاب فى الدنيا وفى الآخرة .وأسباب العذاب مجتمعة لكم فى الدنيا ، وأسباب الخير ممتنعة عنكم فى الآخرة ، ونتيجة تربصنا لكم أن نرى السوء يصيبكم ، وتربصكم لنا يجعلكم ترون الخير وهو يسعى إلينا ، إذن فنتيجة المقارنة ستكون فى صالحنا نحن.

وبعد أن بيَّن الله ذلك يطرأ على خاطر المؤمن سؤال : ألا يصدر من هؤلاء الأقوام فعل خير ؟ وألا يأتى إليهم أدنى خير ؟ ونحن نعلم أن الحق سبحانه يجزى دائماً على أدنى خير .

ونقول : إن الحق شاء أن يبين لنا بحسم مسألة الخيانة العظمى وهى الكفر والعياذ بالله ، وبيَّن أن كل كافر بالله لا يُقبل منه أى عمل طيب ؛ لأن الكفر يُحبطُ أىَّ عمل، وإن كان لعملهم خير يفيد الناس ، فالحق يجازيهم مادياً فى الدنيا ، ولكن ليس لهم فى الآخرة إلا النار[1] ، ويقول:

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ :«إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ، يعطى بها فى الدنيا ، ويجزى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله فى الدنيا ،حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٠٨) وأحمد فى مسنده (٣/ ١٢٣ ، ١٢٥ ، ٢٨٣).

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

إذن : فشرط تقبُّل الله لأى عمل إنما يأتى بعد الإيمان بالله ، أما أن تعمل وليس فى بالك الله ، فخذ أجرك ممن كان فى بالك وأنت تعمل .

لذلك ضرب الله مثلاً بأعمال الذين كفروا فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

[النور]

ويعطينا الله سبحانه مثلاً آخر فى قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

[إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]

وهذا ما يشرح لنا ما استغلق على بعض العلماء فهمه فى قول الحق :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]

فقد تساءل بعض من العلماء : أيجزى الحق سبحانه هؤلاء الكفار فى الآخرة أم فى الدنيا ؟ وقد استغلق عليهم الأمر لأن الآية عامة . ونقول : إن الحق يعطى فى الدنيا الجزاء لمن عمل للدنيا ، ويعطى فى الآخرة لمن عمل للدنيا والآخرة وفى قلبه الله . ولذلك فالذين يحسنون اتخاذ الأسباب المخلوقة لله بمنح الربوبية ينجحون فى حياتهم . والذين يتقدمون دنيوياً فى زراعة الأرض وانتقاء البذور والعناية بها يعطيهم الله جزاء عملهم فى الدنيا ، ولا يبخس منه شيئاً ؛ ولكن الحق سبحانه يقول أيضاً :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

هذا القول يوضح عطاء الآخرة ، ولذلك فالخير الذى يعمله غير المؤمن لا يُجزى عليه فى الآخرة [١]؛ لأنه عَمِلَ وليس فى باله الله ، فكيف ينتظر جزاءه ممن لم يؤمن به ؟

إن الله سبحانه يجزى مَنْ آمن به وعمل من أجله . ولكن من كفر بالله حبط كل عمله . وهذا أمر طبيعى ؛ لأنك ما دُمْتَ قد عملت الخير وليس فى بالك الله ، فلا تنتظر جزاءً منه . إن عملتَ للإنسانية أعطتْك الإنسانية ، وإن عملتَ للمجتمع أعطاك المجتمع وصنعوا لك التماثيل وأطلقوا اسمك على الميادين والشوارع ، وأقيمت باسمك المؤسسات ، وتحقق لك الخلود فى الدنيا ، وهذا هو جزاؤك . ولكن إن كنت مؤمناً بالله ، راجياً ثوابه تجىء يوم القيامة لتجد يد الله ممدودة لك بالخير الذى قدمته .

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله ، ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : « لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٤) وأحمد فى مسنده (٦/ ٩٣ ، ١٢٠) وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٤٠٥) من طريق آخر عن عائشة وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبى .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ والطَّوْع : هو الفعل الذى تُقبل عليه بإرادتك دون أن تكون مكرهاً ، فكيف لا تجازى على خير فعلته بإرادتك ؟

ولا بد لنا أن نفرق بين «طوع» و«طائع» ، وكذلك نفرق بين هذا وبين الفعل الذى تقوم به حين يحملك غيرك ويُكرهك أن تفعله . والأفعال كلها إما أن تكون بالطواعية وبالإرادة ، وإما أن تكون بالإكراه . ولو كان الحق قد قال : أنفقوا ، طاعة لما قال : ﴿ لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ ؛ لأن الطاعة معناها انصياع عابد لإرادة معبود ، ولكن قوله هنا : ﴿ طَوْعًا ﴾ يكشف أن ما ينفقونه هو أمر اختيارى من عندهم . وكانت أحوال المنافقين كذلك ، فمنهم من قدم أولاده للجهاد ، ومنهم من قدم بعضاً من ماله ، وكانوا يفعلون ذلك طائعين لأنفسهم ويستترون بمثل هذه الأفعال حتى لا يفتضح نفاقهم ، وكان الواحد منهم يتقدم إلى الصف الأول من صفوف الصلاة فى المسجد ، ويفعل ذلك طوْعَ إرادته ، خوفاً من افتضاح نفاقه لا طاعة لله ، فطاعة الله هى طاعة عابد لمعبود ، أما مثل تلك الأفعال حين تنبع من طوع النفس فهى للمظهر وليست للعبادة .

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ هل هذا أمر بالإنفاق ؟ أو هل الله يريد منهم أن ينفقوا فعلاً ، خاصة أنه سبحانه لن يتقبل منهم ؟ لا ليس هذا أمراً بالإنفاق بل هو تهديد ووعيد . مثلما تقول لإنسان : اصبر ، فذلك ليس أمراً بالصبر ولكن تهديد بمعنى : اصبر فَستَرى منى هَوْلاً كثيراً . وهذا مثل قوله تعالى :

﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا .. (١٦) ﴾ [الطور]

وقوله تعالى :

﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ .. (٤٠) ﴾ [فصلت]

أى: أنكم إن صبرتم أو لم تصبروا فإن ذلك لن يغير شيئاً من الجزاء الذى سوف تلاقونه ، فالأمر سواء . ولو كان قوله تعالى: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أمراً ؛لكان كل من عمل معصية داخلاً فى الطاعة؛ لأن الله أمره أن يفعل ما يشاء . ولكن هذا أمر تهديدى ، أى: افعلوا ما شئتم فأنتم عائدون إلى الله وسيحاسبكم على ما عملتموه ؛ ولن تستطيعوا الفرار من الله سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿ أَنفِقُوا ﴾ هو -إذن- أمر تهديدي؛ لأنه لن يجديكم أن تنفقوا طوعاً أو كرهاً .

وكلمة ﴿ كَرْهًا ﴾ وردت فى القرآن الكريم فى أكثر من سورة ، فهى فى سورة آل عمران، وفى سورة النساء، وفى سورة التوبة ، وفى سورة الأحقاف، وفى سورةالرعد، وفى سورة فصلت ، قد ذكرت ﴿ كَرْهًا ﴾ بفتح الكاف وقرأها بعضهم بضم الكاف . وقال البعض : إن "كَرْهًا" بفتح الكاف و"كُرْهًا" بضم الكاف بمعنى واحد . نقول لهم : لا ، إن المعنى ليس واحداً ، فمثلاً قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف]

فالكُره هنا ليس للحمل ولا للوضع، ولكن للمشقة التى تعانيها الحامل أثناء حملها وعند الولادة . فلم يكرهها أحد على هذا الحمل . ولكن البعض يقول: إن الحمل يحدث وليس للمرأة علاج فى أن تحمل ولا أن تضع ، فلا توجد امرأة تقول لنفسها : "سوف أحمل الليلة" ؛ لأن الحمل يحدث دون أن تَعىَ هى حدوثه ، فالحمل يحدث باللقاء بين الرجل والمرأة . والمرأة لا تستطيع أن تختار ساعة الحمل ولا أن تختار ساعة الولادة ، ولا تستطيع أن تقول : سألد اليوم أو لن ألد اليوم . فكل هذا

يحدث إكراهاً بغير اختيار منها. ولذلك نقول لمن يقولون أن "كَرْهًا" بفتح الكاف و"كُرْهًا" بضم الكاف بمعنى واحد: لا؛ لأن "الكُرْه" بضم الكاف هو ما لا يريده الإنسان لأن فيه مشقة، و"الكَره" بفتح الكاف هو ما فيه إكراه من الغير. إذن فـ"كَرْهاً" بفتح الكاف تختلف فى معناها عن "كُرْهًا" بضم الكاف(١).

الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ أى: لن يقبل الله منكم ما تنفقونه. ولكن ما الفرق؟ لقد كان المنافقون يدفعون الزكاة ويقبلها الرسول منهم ولم يرفضها أدباً منه ﷺ، فكل عمل يؤدى ثم يذهب إلى الرقيب الأعلى وهو الحق سبحانه وتعالى. ولكن حدث أن واحداً من هؤلاء هو ثعلبة طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو له بالغنى، فلما دعا له ورزقه الله الرزق الوفير بَخِل عن الزكاة، وحاول أن يتهرب من دفعها(٢)؛ فنزل القول الكريم:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) ﴾ [التوبة]

(١) وإلى هذا ذهب الفراء فقد قال: إن الكُره ما أكرهت نفسك عليه، والكَره ما أكرهك غيرك عليه. نقله ابن منظور فى لسان العرب.

(٢) وذلك أن ثعلبة بن حاطب الأنصارى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقنى مالاً، فقال ﷺ: ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه. فقال ثعلبة: والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقنى مالاً لأوتين كل ذى حق حقه. فقال ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً» وتدرج به الأمر حتى ترك الصلاة والجمعة ثم منع الزكاة وقال: ما هذه إلا جزية. وبعد ما نزلت آية التوبة (٧٥) أتى ثعلبة رسول الله ﷺ يرجوه أن يقبل صدقته فقال ﷺ: «إن الله قد منعنى أن أقبل صدقتك» فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه. حديث طويل أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (٧٨٧٣) من حديث أبى أمامة. قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٣٢): «فيه على بن يزيد الألهانى وهو متروك». وانظر أسباب النزول للواحدى (ص ١٤٥).

وعندما نزلت هذه الآيات جاء ثعلبة ليدفع الزكاة لرسول الله ﷺ فلم يقبلها منه . وعندما توفى رسول الله ﷺ جاء ثعلبة إلى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبل منه الزكاة . وبعد أبى بكر جاء إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلم يقبلها منه . ومات ثعلبة فى عهد عثمان [1]. هذا هو عدم القبول.

ولكن هناك فى عهد رسول الله ﷺ من دفع الزكاة من المنافقين وقُبلَتْ منه ، ولكن الله لم يتقبلها منه. إذن : فكل عمل قد يُقبل من فاعله ، ولكن الله سبحانه وتعالى قد يتقبله أو قد لا يتقبله . إذن فالآية معناها : أن الله لن يتقبل من هؤلاء المنافقين إنفاقهم فى الخير ولو تقبله البشر .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى السبب فى ذلك فيقول :

﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ وكما قلنا: إن كلمة الفاسق مأخوذة من "فسقت الرُّطَبَة" أى انفصلت القشرة عن الثمرة . وقشرة البلح مخلوقة لتحفظ الثمر . وعلمنا أن المعانى فى التكليف الشرعى قد أُخذت من الأمور الحسّية ؛ ولهذا تجد أن الدين سياج يمنع الإنسان من أن يخرج على حدود الله ويحفظه من المعصية ، والإنسان حين ينفصل عن الدين إنما يصبح كالثمرة التى انفصلت عن سياجها .

فالذى يشرب الخمر أو يرتكب الجرائم أو الزنا يُعاقب على معصيته، أما إن كان الإنسان منافقاً بعيداً عن الإيمان بالله فطاعته لا تقبل . وهَبْ أن الإنسان مؤمن بالله ولكنه ضعيف أمام معصية ما ،هنا نقول : لا شىء يجور على شىء، إن له ثوابَ إيمانه وعليه عقاب معصيته .

(١) عندما ولى عثمان الخلافة ، أتاه ثعلبة فسأله أن يقبل صدقته ، فقال : رسول الله ﷺ لم يقبلها ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها ؟! فلم يقبلها عثمان. انظر : أسباب النزول للواحدى (ص ١٤٥ ، ١٤٦) .

إذن: فالفسق فى هذه الآية الكريمة ليس هو الخروج عن مطلق الطاعة. ولكنه فسق من نوع خاص ؛ لأن هناك فسقاً محدوداً وهو أن يخرج الإنسان عن مجرد تكليف . ولكن الفسق الكبير هو أن يكفر الإنسان بالله. ولذلك جاءت الآية الكريمة التالية :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

إذن: فالفسق نوعان : فسق عام، وفسق خاص . وقد يقول البعض: إنك إن ارتكبت معصية فصلاتك وزكاتك وكل عباداتك لا تنفعك.

ونقول: لا فما دامت القمة سليمة ؛ إيماناً بالله وإيماناً بالرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقاً بالمنهج ، فلكل عمل عبادى ثوابه ، ولكل ذنب عقابه ؛ لأن الحق سبحانه مطلق العدالة والرحمة، ولا يمكن أن يضع كل الشرور فى ميزان الإنسان . فمن كان عنده خصلة من خير فسوف يأخذ جائزتها وثوابها ، ومن كان عنده خصلة من شر فسوف ينال عقابها.

وقوله الحق هنا ﴿ **وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ** ﴾ ، هذا القول الكريم هو حيثية للحكم بعدم قبول نفقاتهم ، وفى هذا تحديد لعموم الفسق وهو الكفر ، لا فى خصوص الفسق ، وحدد الحق ثلاثة أشياء منعت التقبل منهم : الكفر بالله ورسوله وهو كفر القمة ، ثم قيامهم إلى الصلاة وهم كسالى، ثم الإنفاق بكراهية .

ونفهم المنع على أنه رَدُّ الفعل إلى ما ينقض العمل أو ينافيه ؛ كأن يريد إنسان القيام فتُقعده ، أى أنك رددت إرادة القيام إلى القعود ، وهو ما ينافيه ، أو أن يحاول إنسان ضرب آخر فتمنع يده ، فتكون بذلك قد منعت غيره من أن يعتدى عليه . إذن فالمنع مرة يأتى للفاعل ومرة للمفعول . فأنت حين تمنع زيداً من الضرب تكون قد منعت الفاعل، وحين تمنع عنه الضرب تكون قد منعتَ المفعول، وكل فلسفة الحياة قائمة على المنع ، الذى يوجزه الفعل ورد الفعل ، تجد ذلك فى الإنسان وفى الزمان وفى المكان .

وإذا بحثت هذه المسألة فى الإنسان تجد أن حياته تقوم على التنفس والطعام والشراب ، والتنفس هو الأمر الذى لا يصبر الإنسان على التوقف عنه ، فإن لم تأخذ الشهيق انتهتْ حياتك ، وإن كتمت الزفير انتهت حياتك . وإذا منعت الهواءمن الدخول إلى الرئتين يموت الإنسان ، وإذا منعت خروج الهواء من الرئتين يموت الإنسان أيضاً .

وحركة العالم كله مبنية على الفعل وما يناقضه . فإذا حاول إنسان أن يضرب شخصاً آخر وأمسكتَ يده ، وقلت له : سيأتى أبناؤه أو إخوته أو عائلته ويضربونك ، حينئذ يمتنع عن الفعل خوفاً من رد الفعل . والعالم كله لا يمكن أن يعيش فى سلام إلا إذا كان هناك خوف من رد الفعل[1] ؛ القوى يواجه قوياً ، والكل خائف من رَدِّ فعل اعتدائه على الآخر . ولكن إذا واجه قوى ضعيفاً ، تجد القوى يفتك بالضعيف .

وهكذا العالم كله ، فالكون إما ساكن وإما متحرك . وتجد الكون المتحرك فيه قوى متوازية تعيش فى سلام خوفاً من رد الفعل . وكذلك تجد العالم الساكن ؛ فالعمارة الشاهقة تستمد ثباتها وسكونها من أن الهواء

(١) وفى هذا يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

لا يأتى من جهة واحدة ، ولكن من جهات متعددة تجعل الضغط متوازناً على كل أجناب العمارة . ولكن لو فرَّغتَ الهواء من ناحية وجعلته يهب من ناحية أخرى لتحطمت العمارة ، تماماً كما تُفرِّغ الهواء من إناء مغلق فيتحطم .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إلاَّ أنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ لا يعنى أن ألسنتهم لم تنطق بالشهادة ، لا ، فقد شهد المنافقون قولاً ، ولكن هناك فرق بين قولة اللسان وتصديق الجنان ؛ فالإيمان محله القلب ، والمنافقون جمعوا بين لسان يشهد وقلب ينكر ، فأعطاهم الرسول حق شهادة اللسان ، فلم يتعرض لهم ولم يأسرهم ولم يقتلهم، وأعطاهم نفس الحقوق المادية المساوية لحقوق المؤمنين ، وكل ذلك احتراماً لكلمة " لا إله إلا الله محمد رسول الله" التى نطقوا بها ؛ولأن باطنهم قبيح ، فالحق سبحانه يجازيهم بمثل ما فى باطنهم ، ويعاقبهم ، فلا يأخذون ثواباً على ما يفعلونه ظاهراً وينكرونه باطناً . وهكذا كان التعامل معهم منطقياً ومناسباً . فما داموا قد أعطوا ظاهراً ، فقد أعطاهم الله حقوقاً ظاهرة ؛ ولأنهم لم يعطوا باطناً طيباً ، فلم يُعْطِهم الله غيباً من ثوابه وغيباً من جنته وعاقبهم بناره .

ونأتى إلى السبب الثانى فى قوله تعالى : ﴿ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ والكسل : هو التراخى فى أداء المهمة . إذن فهم يصلون رياءً ، فإن كانوا مع المؤمنين ونُودى للصلاة قاموا متثاقلين . وإن كانوا حيث لا يراهم المؤمنون فهم لا يؤدون الصلاة . إذن فسلوكهم ملىء بالازدواج والتناقض .

والسبب الثالث : ﴿ وَلا يُنفِقُونَ إلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ والنفقة هى بذل ما عندك من فضل ما أعطاه الله لك ؛ سواء أكان ذلك مالاً أم علماً أم جاهاً

أم قوة ، وهذا ما يحقق التوازن فى المجتمع ؛ لأن كل مجتمع به أعراض كثيرة ، تجد القوى والضعيف ، الغنى والفقير ، العالم والجاهل ، الصحيح والمريض . ولو أن كل إنسان تحرك فى حياته على قدر حاجته فقط لهلك الضعفاء والمرضى والعاجزون والفقراء . ولكن لابد أن يعمل كل إنسان على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته ، ولابد أن يأخذ من ناتج عمله على قدر حاجته ومن يعول ، فأنت تأخذ حاجتك من ثمرة طاقتك ، ثم تفىء على غيرك بفضل الله عليك ، خصوصاً على هؤلاء الذين لا يقدرون على الحركة فى الحياة ، فالصحيح يعطى المريض من قوته ما يعينه على الحياة . والغنى يعطى الفقير من ماله ما يعينه على الحياة . والقادر على الحركة يعطى من لا يقدر عليها ، هذا هو المجتمع المتكافل .

ومثل هذا السلوك هو لصالح الجميع ؛ لأن الغنى اليوم قد يكون فقيراً غداً ، والقوى اليوم قد يكون ضعيفاً غداً ، فلو أحس الإنسان بأنه يعيش فى مجتمع متكافل فهو لن يخشى الأحداث والأغيار . وهذا هو التأمين الصحيح للقادر والغنى ويشعر فيه كل إنسان بالتضامن والتكافل ، فلا ينشغل الفقير خوفاً من الأحداث المتغيرة ، وإن مات فلن يجوع عياله ، وإن افتقر الغنى فسوف يجد المساندة ، وإن مرض الصحيح فسوف يجد العلاج .

إذن : فالنفقة أمر ضرورى لسلامة المجتمع ، ونجد أن السوق توصف بأنها نافقة ، وهى التى يتم فيها بيع كل السلع وشراؤها . فمن أراد أن يبيع باع ، ومن أراد أن يشترى اشترى ، إذن فالحركة فيها متكافئة . وأنت حين تذهب إلى السوق لتبيع أو تشترى ، فإما أن تأخذ مالاً نقدياً مقابل ما بعْتَ ، وإما أن تدفع مالاً ثمناً لما اشتريت . وقديماً كان الإنسان يبادل السِّلعة بسلعة أخرى . وبعد اختراع النقود أصبح الإنسان يشترى السلع بثمن ، ومن ينفق ماله ويقدمه عند الله ، فالحق سبحانه يأتى له بكل خير .

وقد أراد الحق سبحانه للمنافقين العذاب الباطني في الدنيا، والعذاب الواقع أمام الكل في الآخرة ، وبيَّن لهم أن إنفاقهم طَوْعاً أو كَرْهاً لن يأتي لهم بالخير .

ولكن من ينظر إلى المنافقين قد يجد أنهم يستمتعون بالمال والولد . ولا يلتفت الإنسان الناظر إليهم إلى أن المال والولد هما أدوات عذابه . وقد يقول إنسان : إن الله قد قال :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾ [الكهف]

ونقول لمن يقول ذلك : أكمل الآية :

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾ [الكهف]

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن]

والله يخاطب رسوله ﷺ، وفي طي هذا الخطاب خطابٌ لجميع المسلمين، وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ (٥٥) ﴾

وإياكم أن تروا واحداً من هؤلاء ممن رزقهم الله المال والولد ثم تقولون: كيف يكون عذابهم في الدنيا وهم يملكون المال والولد ؟ ومثل هذا التعجب يعني استحسان المال والولد ، والظن أن فيهما الخير كله ، لكنك إن نظرت

بعمق إلى المال والولد وكل حطام الدنيا فستجده لا يستحق الإعجاب ، وإياك أن تغتر بشيء يمكن أن يتركك ، ويمكن أن يكون سبباً فى عذابك ، فالمال والولد قد يجعلان الإنسان ملتفتاً إلى النعمة ويلهيانه عن المنعم . وإن لم يلتفت الإنسان إلى المنعم لا يذكره . وإن لم يذكر الله أهمل منهجه .

والمال والولد فى الحياة الدنيا قد يكونان سببين فى أن يخاف الإنسان ترك الدنيا . فإن لم يكن لك إيمان بما عند الله فى الآخرة ، فقد تخاف أن يتركك المال أو الولد . والذى لا يؤمن باليوم الآخر ؛ فالدنيا هى كل زمنه ؛ وإن فاتها كان ذلك مصيبة له ، وإن فاتته كان ذلك مصيبة عليه . وإن آمن الإنسان بالله واليوم الآخر لقال : لئن فاتتنى الدنيا فلى عند الله خير منها . ويريد الحق سبحانه أن يمنع عن المؤمنين به فتنة النعمة التى تُلْهِى عن المنعم، فيقول سبحانه:

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ ﴾ والآية الكريمة تدلُّنا على أن للمال وحده إعجاباً ، وللأولاد وحدهم إعجاباً، فمن عنده مال معجب بما عنده . ومن ليس عنده مال وعنده أولاد معجب بهم أيضاً . فإذا اجتمع الاثنان معاً يكون الإعجاب أكبر وأشمل . والحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن اجتماع المال والولد يجب ألا يثير الإعجاب فى نفوسنا ، بل إن سياق الآية يحذرنا من أن نعجب بمن عنده المال وحده ، أو بمن عنده الأولاد وحدهم، لذلك كرر الحق سبحانه وتعالى كلمة : ﴿ لا ﴾ فقال: ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ ﴾ .

وأفهمنا الحق سبحانه وتعالى أنه إذا أمد الكافرأو المنافق بالمال والولد ؛ فذلك ليس رفعة من شأنه ، وإنما ليعذبه بهما فى الدنيا والآخرة . فقال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا ﴾ ، واللام هنا فى "لِيُعَذِّبَهُم" هى لام تدخل

على الفعل واسمها "لام العاقبة" . وهى تعنى أننا ربما نقوم بالفعل لهدف معين ، ولكن قد تكون عاقبته شيئاً آخر تماماً غير الذى قصدناه ، بل ربما تكون عكس الذى قصدناه .

وعندما نقرأ القرآن نجد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ... (٨) ﴾ [القصص]

هل التقط آل فرعون موسى عليه السلام ليكون لهم عدواً ؟ أم ليكون قرة عين لهم ؟

هم قد التقطوه ليكون قرة عين لهم ، ولكن الذى حدث كان عكس ما قصدوه ساعةَ قيامهم بفعل الالتقاط ، فبدلاً من أن يصبح موسى قرة عين ، أصبح عدواً لفرعون ،بل كان سبباً فى زوال مُلكه ، إذن هذه هى لام العاقبة .

والله سبحانه وتعالى أعطى لبعض الكفار أموالاً وأولاداً ، وهذا فى ظاهره رفعة فى الدنيا ، ولكنهم بدلاً من أن يستخدموا هذه النعمة فى التقرب إلى الله ألهتهم عن الإيمان بالله ، ووصل بهم الأمر إلى أن يدخلهم الحق فى العذاب . ولم يُرِد الحق العذاب لهم، ولكنهم بحركتهم وفتنتهم بالمال والولد استحقوا أنَ يدخلوا فى العذاب . والعمل غير الشرعى فى تنمية المال أو إرضاء الأولاد هو الذى أوصلهم إلى العذاب .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وأول ألوان العذاب : أن تلهيهم تلك النعم عن المنعم . وتبعدهم عن منهج الله فيصيرون فى عداء مع المؤمنين بمنهج الله ، ويخافون إعلان هذا العداء ؛ لذلك حينما كان يرسل الرسول ﷺ فى طلب واحد من المنافقين أو اليهود كانوا يرتعدون

ويتساءلون [١] : هل اكتشف الرسول أمرنا أم كشف الله له بعض خبايانا ؟ وكانوا في خوف أن يفتضح أمرهم ،فيعاملهم معاملة المشركين ويشردهم .

وثانياً :كانوا يخافون من أن يدخل الرسول ﷺ في حرب ؛ لأنهم ما داموا قد أعلنوا الإيمان فهم مطالبون ببذل المال ، وأن يذهب أولادهم الذين بلغوا سن القتال مع جيش المسلمين، وكانوا يقولون بينهم وبين أنفسهم : ما لنا نبذل المال ونضحى بالأولاد في سبيل ما لا نؤمن به . وهم بمشاعرهم تلك يختلفون عن مشاعر المؤمنين الذين يُلَبُّون نداء رسول الله طمعاً في الجنة أو النصر .وهذا لون من ألوان العذاب .

وهناك لون آخر من العذاب: عندما يخرج هؤلاء المنافقون إلى إحدى الغزوات ، فهم يخافون على أنفسهم من القتل أو الأذى بالأسر أو سبى النساء، فيكونون في عذاب نفسى طوال الرحلة إلى الغزوة وفي أثناء الحرب.

ولون ثالث من ألوان العذاب: أن عابد المال يجمع المال من حرام ومن حلال ، لا يهمه من أين جاء المال ؟ ولكن يهمه أن يأتى ، والذى يكسب حلالاً يكون واضح الحركة في الحياة ، والذى يكسب حراماً هو لص يخاف أن ينكشف أمام الناس ، ويعيش في عذاب أليم دائم من أن يأتى يوم يكشف الله ستره فيعرف الناس أنه ارتشى ، أو أنه اختلس ، أو أنه زَوَّرَ وَزَيَّف . أو أنه فعل شيئاً يُحقِّره في أعين الناس أو يُعرِّضه للعقوبة ؛ كأن يكون قد تاجر في المخدرات أو في الأعراض . أو في غير ذلك ، وخوفه من انكشاف أمره يجعله يعيش في عذاب دائم وصراع مستمر .

(١) قال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ٦٤] . قال مجاهد : يقولون القول بينهم ثم يقولون : عسى الله ألا يفشى علينا سرنا هذا . وقال الحسن : كان المسلمون يسمون هذه السورة الحفارة ؛ لأنها حفرت ما في قلوب المنافقين فأظهرته . انظر ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٦٦) والقرطبي (٤/ ٣١٢١) .

وإذا أردنا أن نعرف الفرق بين الحلال والحرام نضرب هذا المثل : أنت إن أعجبك شيء في بيت جارك ، وطلبته منه وأعطاك إياه ، فأنت لا تخشى أن يعرف الناس ما حدث . ولكن إذا أعجبك شيء في بيت جارك وأردت أن تسرقه ، فأنت لا تأتي في النهار ولا أمام الناس ، بل تأتي ليلاً وتحرص على ألا يراك أحد . ولا تدخل من باب الشقة ، بل تظل تدور وتخطط لتجد منفذاً تدخل منه دون أن يراك أحد . وتضع خطة للسرقة . وتدخل المنزل على أطراف أصابعك وأنت ترتعد . فإذا شعرت وأنت تنفذ الخطة بصوت أقدام تنزعج وتجرى لتختبيء وتأخذ الشيء وتكون حريصاً على إخفائه وإن رآه أحد عندك انزعجت ، وكل هذا عذاب يمر به كل من يجمع المال الحرام ، إذن فجمع المال الحرام عذاب .

وكل من يربي أولاده من مال حرام لا يبارك الله له فيهم ، فإما أن ينشأ الواحد منهم عذاباً لأبيه في تربيته فيرسب في الامتحانات . ويُتلف المال في الإنفاق بلا وعي . فكلما أعطيته أكثر احتاج إلى المزيد من المال أكثر . ومثل هذا الابن لا يطيع أباه ، ويكون العذاب الأكبر حينما ينشأ أحد أبناء هذا الإنسان ويكون الابن مؤمناً إيماناً صادقاً بالله ، فيرفض أن يأكل أو يلبس من مال أبيه ، أو أن يناقشه من أين جاء بهذا المال ويسمع منه ما يكره ، ويتمرد دائماً عليه .

وفي عهد رسول الله ﷺ كان أبو عامر عدواً لله ورسوله . وكان ابنه حنظلة [1] مؤمناً ، وكلما رأى أبو عامر ابنه كان قلبه يغلي بالغيظ ، وعندما نودي للقتال ، وسمع حنظلة نداء الجهاد بعد أن فرغ من الاستمتاع مع زوجته [2] فلم يصبر إلى أن يغتسل من الجنابة ، بل سارع إلى الحرب

(١) هو : حنظلة بن الراهب عبد عمرو بن صيفي الأوسي وكنية أبيه أبو عامر ، وحنظلة من أهل الصُفّة .
(٢) جاء في مستدرك الحاكم (٣/ ٢٠٤) أن هذه كانت أول ليلة له مع زوجته ، وترك جنيناً في أحشائها ولد عام ٤ هـ هو عبد الله ، أصبح من أعلام التابعين وشجعانهم ، ولاه أهل المدينة أمرهم فقاتل جيش يزيد ابن معاوية قتالاً شديداً حتى قتل عام ٦٣ هـ . انظر الأعلام للزركلي (٤/ ٩٩) .

مع رسول الله ﷺ واستشهد فى المعركة . ولكن كيف عرف الصحابة قصة حنظلة ، مع أن هذه المسألة تكون سراً بين الرجل وزوجته لا يعرفه أحد ؟ لقد عرف المؤمنون بخبر حنظلة حين رأى رسول الله ﷺ بإشراقات الله أن الملائكة تنزل من السماء وتُغسِّل حنظلة . ولما كان الشهيد لا يُغسل[(١)] ، فقد عرف الرسول ﷺ أن هذا ليس غُسْلاً من الشهادة ، وإنما هو غُسْل حتى لا يُقبلَ الشهيد على الله وهو جُنُب ، رأى الرسول ﷺ ما حدث لحنظلة ، وعندما عاد إلى المدينة بعث إلى زوجة حنظلة وسألها : ماذا حدث ساعة خروج حنظلة إلى المعركة؟ فقالت: إنه عندما سمع نداء القتال ، خرج بدون غُسْل[(٢)] . وتأمل كيف نزلت الملائكة لتغسل شهيداً هو ابن عدو لله ورسوله . وكيف يكون هذا غَيْظاً فى قلب الأب .

وقصة أخرى : سيدنا عبد الله بن عبد الله بن أبىّ ؛ والده عبد الله بن أبىّ كان زعيم المنافقين فى المدينة، وهو الذى انسحب يوم أحد ومعه ثلث المقاتلين من المعركة[(٣)]. ويسمع عبد الله أن صحابة رسول الله ﷺ ، يطلبون منه الإذن بقتل والده ابن أبىّ ، انظروا إلى الإيمان . فها هو الابن يذهب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام،ويقول له : يا رسول الله إن كنتَ آمراً

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال فى شهداء أحد : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة . وأمر بدفنهم فى دمائهم ، ولم يغسلوا ولم يصل عليهم . . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٤٣) وأبو داود (٣١٣٨) ، والترمذى (١٠٣٦) وابن ماجه (١٥١٤) والنسائى (٤/ ٦٢) فى سننهم . وقد أخرج أحمد فى مسنده عن جابر أيضاً (٣/ ٢٩٩) : « لا تغسلوهم فإن كل جرح أو كل دم يفوح مسكاً يوم القيامة ولم يصل عليهم » .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ٣٥٧) والحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٠٤) وصححه والبيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٢٤٦) والبيهقى فى سننه الكبرى (٤/ ١٥) أن رسول الله ﷺ قال : « إن صاحبكم - يعنى حنظلة - لتغسله الملائكة ، فاسألوا أهله ما شأنه » فسئلت صاحبته فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة . فقال ﷺ : « لذلك غسلته الملائكة » .

(٣) قال ابن إسحاق : حتى إذا كانوا بالشوط - بين المدينة وأحد - انخزل عنه عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصانى (يقصد محمداً ﷺ) ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟ فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب . انظر سيرة النبى لابن هشام (٣/ ٨) .

بقتل أبى فأمرنى أنا بقتله ؛ حتى لا ألقى قاتله من المسلمين وفى قلبى غلٌ عليه[1] . وعندما يسمع الأب أن ابنه يطلب أن يكون هو قاتله ، أليس هذا عذاباً فى قلبه؟ وهكذا نرى أن الأموال والأولاد الذين كان من المفروض أن يكونوا نعمة يصبحون نقمة ، أليس هذا عذاباً فى الدنيا ؟

ولكن غير المؤمنين لا يلتفتون إلى واهب النعمة، ولا إلى الجزاء الذى ينتظرهم فى الآخرة ، ولا يتنبهون إلى حكمة الخلق التى تؤكد أن الإنسان خليفة الله فى الأرض، وأن الله قد أعدَّ الأرض بكل ما فيها من إمكانات ومن خيرات لتكون فى خدمة هذا الخليفة ، أى: أنه أقبل على عالم كامل من كل شىء ؛ معداً له إعداداً فوق قدراته وطاقاته .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى حديث قدسى : « خلقتُ الأشياء من أجلك، وخلقتُك من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له » .

أى: لا تشتغل بالنعمة عن المنعم ، تماماً كما يدخل الإنسان إلى وليمة كبيرة ، فيجد المائدة مُعدَّة بكل ألوان الطعام ، وصاحب المائدة واقف فلا يحييه ولا يسلم عليه ويذهب مباشرة إلى الطعام ، فيُحسُّ الناس أن هذا الإنسان جاحد بكرم الضيافة . بينما نجد رجلاً آخر يدخل فيسلم على صاحب الوليمة ويشكره على كرمه ويشيد به ، الأول: انشغل بالنعمة ، والثانى: لم يُنْسه انشغاله بالنعمة أن يشكر مَنْ أعدها له .

ومثال آخر: إن الصحة هى من أثمن النعم. أما المرض فإنه أقسى ما يمكن أن يصاب به الإنسان ؛لأن الصحة هى التى تجعل الإنسان يتمتع بنعم الحياة ، أما المرض فيحرمه هذه النعمة . ولذلك فعندما يمرض الإنسان

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسير آية ﴿ ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ﴾ [المنافقون: ٨] بنحو ألفاظه وعزاه لابن إسحاق .

يعوضه الله بأنه بدلاً من أن يكون فى معيّة النعمة ، يكون فى معيّة المنعم وهو الله سبحانه. ولذلك يقول فى حديث قدسى :

«عبدى فلان مرض فلم تَعُدْنى . فيقول له: يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول له: أما علمْتَ أنك لو عُدته لوجدتنى عنده »[1]

قولوا لى بالله: أيضيق أى مريض عندما يعرف أن الصحة كانت نعمة من الله وفارقته ، ولكن المرض جعله مع المنعم، وهو الله سبحانه وتعالى ؟ لا ،بل إن ذلك يخفف عنه وطأة المرض ، ويجعله يشعر أن الأنْسَ بالله يخفف عنه الآلام . لكنك للأسف تجد الإنسان غير منطقى مع نفسه ، فالعالم خُلق من أجل الإنسان . والإنسان خُلق ليعبد الله . ولكنك تجده لا يلتفت لما خُلق من أجله ، بل يلتفت للأشياء التى خُلقت له . وقد كان من المنطقى أن ينشغل بما خُلق من أجله .

وإذا أخذنا مثلاً منطق الإنسان مع الزمن ، نجد أن الزمن إما أن يكون حاضراً أو ماضياً أو مستقبلاً . فإذا أردنا أن نذهب إلى ما لا نهاية نقول: إن الزمن حاضر وأزلى وأبدى . والأزلي: هو القديم بلا بداية . والأبد: هو المستقبل بلا نهاية . والحاضر: هو ما نعيش فيه .

والوجود الذى تراه أمامك خلقه الحق سبحانه واجبُ الوجود وبكلمة «كن» جاء كل «ممكن الوجود»؛ لأن كل وجود يحتاج إلى مُوجد هو وجود ممكن ، وسيأتى له عدم . أما الوجود غير المحتاج إلى موجد فهو وجود

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٩) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى . قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ » الحديث .

لا ينتهي. أي: أن واجب الوجود هو وجود الله وحده سبحانه وتعالى . ولذلك فهو وجود أزلي قديم بلا نهاية ، وأبد باق بلا نهاية . وبذلك فهو يخرج عن الزمن .

نأتي بعد ذلك إلى المخلوقات الممكنة ، أي التي لها مُوجدٌ ، وهي كل ما في الكون ما عدا الله سبحانه وتعالى ، ومنها هذه الدنيا التي يعبدها بعض الناس من دون الله ، هذه الدنيا ليس لها أزل ولا أبد ، فالدنيا لم توجد إلا عندما خلق الله السماوات والأرض ، أي ليس لها وجود بلا نهاية . ولكن كان وجودها ببداية . إذن فهي ليست أزلاً ، وهي ليست أبداً لأنها تنتهي بيوم القيامة .

ولذلك لا يجتمع في قلب المؤمن حب الله وحب الدنيا ؛ لأن الله أزل وأبد، والدنيا لا أزل ولا أبد ، بل عمر الدنيا بالنسبة للإنسان هي بمقدار عمره فيها . وقبل ميلاده لا علاقة له بها ، وبعد الموت لا علاقة له بها . وحتى إذا أخذنا الدنيا في عمومها فإن لها بداية ونهاية، فكيف يمكن أن يجتمع في قلب المؤمن حب من لا بداية له ولا نهاية ، وحب من له بداية ونهاية ؟ لا يجتمعان .

ولذلك قال شيخنا الزمخشري[1] رضي الله عنه : ما دام هذا الكون فيه وجود ، يكون الوجود: إما واجباً ،وإما ممكناً . والوجود الواجب لله وحده . والوجود الممكن هو كل ما عدا الله ، ولا يوجد أزل ولا أبد إلا للحق سبحانه وتعالى .

(١) هو : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة . ولد في زمخشر عام ٤٦٧ هـ . أشهر كتبه : الكشاف في تفسير القرآن - أساس البلاغة كان معتزلي المذهب . توفي ٥٣٨ هـ الأعلام للزركلي (٧/ ١٧٨) .

فإذا قلنا: إن هناك وجوداً فيه أزل وليس فيه أبد ، نقول: إن هذا ممتنع عقلاً؛ لأن الذى لا تكون له بداية لا تكون له نهاية .أى: يكون دائم الوجود.

إذن: فيبقى أن يكون الوجود له أبد وليس له أزل، أى: له بداية وليس له نهاية. ونقول: إن هذا يجتمع فى اثنتين ؛ الآخرة والإنسان ؛ الإنسان له بداية هى تاريخ خَلْقه ، وليس له نهاية ؛ لأنه بعد أن يموت يُبْعَثُ مرة أخرى ، إما أن يخلد فى النعيم ، وإما أن يُعذَّبَ قليلاً ، ويدخل الجنة وإمّا يخلد - والعياذ بالله - فى النار .

وكذلك الآخرة لم يأت زمنها بعد . إذن فهى لم تبدأ بعد ، ولكنها متى بدأت فليس لها نهاية ؛ لأن هناك حياة أبدية فى الجنة أو فى النار . إذن: فالإنسان والآخرة اشتركا فى شىء واحد ، ولابد أن يربط الإنسان نفسه بالآخرة ؛ فالذى يأخذ الدنيا إنما أخذ شيئاً له بداية ونهاية ، ولكن الذى يطبق منهج الله ويعبده عن حب واختيار أخذ مَنْ لا بداية له ولا نهاية له . والذى عمل للآخرة ، عمل لما لا نهاية له أو للذى سيخلد فيه ، وتكون فيه حياته الحقيقية .

ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

نعرف أن الحياة الحقيقية هى فى الآخرة وليست فى الدنيا ؛ لأن الغايات فى أى شىء يجب أن تكون متساوية ، فمثلاً: إذا أردنا أن نصنع كُرْسياً . فالغرض من الكرسى أن نجلس عليه . إذن: فكل الكراسى مهما اختلفت أشكالها وألوانها لها غاية واحدة وهى أن نجلس عليها . والإنسان غايته

لابد أن تكون متساوية . وما دُمْنَا أفراداً لجنس واحد فلا بد أن تكون لنا غاية واحدة : ما هي ؟ أهي الصحة ؟ بعضنا مريض . أهي القدرة ؟ بعضنا عاجز. أهي طول العمر ؟ بعضنا عمره في الدنيا ساعات .

وإذا استعرضنا كل ما في الدنيا فلا نجد شيئاً نتفق فيه إلا الموت ، وفيما عدا ذلك فنحن نختلف . إذن فلا بد أن نلتفت في حياتنا الدنيا من أول يوم إلى أننا سوف نموت ونلقى الله ، وعلينا أن نعد العدة لذلك ، وكلنا سائرون إلى هذه النهاية.

والحق سبحانه وتعالى يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ لم يقف عز وجل عند هذا الحد ، بل قال سبحانه : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

و﴿ تَزْهَقَ ﴾ أي تخرج بصعوبة ، لماذا ؟ لأن عابد الدنيا عمل من أجلها فقط . ولم يعمل شيئاً من أجل الآخرة ، فعندما يأتي له الموت ، يجد أنه لم يقدم شيئاً لآخرته ، وأن ما ينتظره هو العذاب ، ولذلك يكره أن يترك نعيم الدنيا إلى عذاب الآخرة . أما صاحب الأعمال الطيبة عندما يأتي له الموت فهو يستبشر ؛ لأن الذي ينتظره خير يفوق كل الذي سيتركه . كمثل إنسان يعيش في كوخ صغير ثم ينتقل إلى قصر فاخر ، ألا يكون سعيداً ؟ وكذلك المؤمن عندما يأتيه الموت يصبح كالذي ينتقل من كوخ صغير إلى قصر فاخر . أما صاحب الدنيا فمثل الذي يؤخذ من قصر إلى نار محرقة ، ولذلك فهو يكره ساعة الموت [1] .

(١) عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ». فقلت : يا نبي الله أكراهية الموت ؟ فكلنا نكره الموت . فقال: « ليس كذلك . ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه . وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله، وكره الله لقاءه ». أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٨٤) والترمذي في سننه (١٠٦٧) وقال : حسن صحيح.

والمؤمن يفرح حين ينتقل من الدنيا الفانية إلى الحياة الخالدة الباقية ، ومن النعمة إلى المنعم ، ومن الحياة بالأسباب إلى الحياة مع المسبِّب ، فنحن فى الدنيا لابد أن نأخذ بالأسباب لنصنع ما نريد ، والمثال : أنك إنْ أردت أن تأكل فلا بد من أن تطهو الطعام أو أن يُعدّه لك غيرك ، وإنْ أردتَ أن تلبس فلا بد لك ممن يصنع لك القماش ويحيك الثوب . ووراء كل نتيجة توجد سلسلة طويلة من الأسباب . فهناك الذى يزرع، والذى يحصد، والذى ينقل إلى المطحن أو إلى المصنع ، والذى يطحن الدقيق أو ينسج القماش ، أما فى الآخرة فلا توجد أسباب ، بل بمجرد أن يخطر الشيء على بالك تجده أمامك ، أليست هذه حياةَ نعيمٍ ؟

إذن : فالذى تنفرج أساريره ساعة الموت هو المؤمن (١) ، والذى ينقبض وجهه ويتشنج عندما يأتيه مَلَكُ الموت هو الكافر والعاصى ؛ لأنه سينتقل من نعيم حتى ولو كان نسبيا إلى عذاب رهيب .

وقد قيل للإمام على رضى الله عنه : يا إمام، أريد أن أعرف نفسى أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال الإمام علىّ : الله أرحم من أن يجعل جواب هذا السؤال عندى وجعل جواب السؤال عندك أنت ، إن كنت تحب من يدخل عليك وهو يريد أن يأخذ منك أكثر مما تحب من يدخل عليك وهو يريد أن يعطيك هدية تكون من أهل الآخرة .

أى : إذا دخل عليك إنسان يطلب صدقة أو مالاً فاستقبلته بترحاب وتحية وتعطيه وأنت مسرور تكون من أهل الآخرة ؛ لأنك تعرف أنه أخذ منك فى الفانية ما يحمله لك أجراً فى الآخرة التى تعمل من أجلها ، ولذلك تحبه .

(١) قال الحسن البصري : لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله ، ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه . (انظر : إحياء علوم الدين ٤/ ٤٦٥) .

أما إن كنت تحب من جاء يعطيك هدية أكثر ممن جاء يسألك تكون من أهل الدنيا ؛ لأن معطى الهدية يزيدك فى دنياك . وما دُمْتَ تفرح بذلك أكثر من فرحك بالذى يزيد آخرتك فأنت من أهل الدنيا.

ويقال: إن فلاناً أحسن الله خاتمته لأنهم دخلوا عليه لحظة الموت فوجدوا وجهه أبيض وملامحه سمحة مستريحة . نقول : إن هذا صحيح ، فهذه لحظة لا يكذب الإنسان فيها على نفسه . ونحن نعلم أن الإنسان حين يشتد عليه المرض فهو يتشبث بالأمل فى أن ينال الشفاء على يد طبيب بارع. لكن الأمر يختلف ساعة الاحتضار حين يعلم الإنسان أن الموت يتخلله وأنه ميت لا محالة، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة]

ويرى ما كان محجوباً عنه فى الدنيا . حينئذ يستعرض أعماله . فإنْ رأى شريط الحياة حُلْواً منيراً ، ابتسم وانفرجتْ أساريره [1] فيُقبَضُ على هذا الوضع . أما من امتلأت حياته بالسوء والمعاصى فوجهه يسودّ وتنقبض أساريره فيُقبض على هذا الوضع . وهذا ما نسميه الخاتمة ، فلحظة الاحتضار فيها يقين بالموت ، تماماً كساعة الامتحان حيث تجد التلميذ الخائب مصفر الوجه مرتعداً ومتشنجاً، أما التلميذ المجتهد فيكون مُبتسماً مُنْفرجَ الأسارير .

وفى ساعة الاحتضار يخلو الذهن من أى شىء إلا صحيفة عمله ، فهى التى تبقى فى بؤرة شعوره ، وبؤرة الشعور هى المكان الذى إن استقر فيه شىء فإنه لا يُنسَى أبداً . فإذا عرف طالب قبل الامتحان بفترة قصيرة،

(١) الأسارير : هى الخطوط التى فى الجبهة من التكسر فيها ، فإذا ضحك الإنسان انفرجت هذه الخطوط دليلاً على فرحه وسروره .

أن هناك سؤالاً سيأتى فى جزء معين من الكتاب وأمسك هذا الجزء وقرأه مرة واحدة تجد أنه وهو يقرؤه لا يفكر فى شىء آخر غيره ، ومجرد قراءته مرة تجعله يجيب الإجابة المتميزة ؛ لأن بؤرة الشعور مثل آلة التصوير ، تأخذ صورة ما ترى مرة واحدة . إذن : فساعة الالتقاط هذه حيث لا شىء يشغل الذهن ، تجد أن الشعور لا يتسع إلا لخاطر واحد ، فلا يأتى خاطر آخر إليها إلا إذا تزحزح الخاطر الأول عنها .

ولذلك إذا سمعتَ شيئاً وحفظتَهُ من أول مرة ، فهذا دليل على أن بؤرة شعورك كانت خالية ومستعدة ساعة التقاط هذا الشىء. كذلك عند الموت ساعة الاحتضار لا يجد الميت فى بؤرة شعوره خاطراً آخر يناقض أو يزاحم أمر الآخرة ، فإن كانت حياته خيِّرة أشرق وجهه وانفرجت أساريره ، وإن كانت حياته سيئة انقبضت أساريره واسودَّ وجهه والعياذ بالله .

وقوله تعالى : ﴿ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ يعطينا معنيين : المعنى الأول: أن النعمة تظل معهم تلهيهم عن الله حتى تأتى ساعة الموت . والمعنى الثانى: أن ساعة الموت تكون شاقة وصعبة على الكافر والمنافق ؛ لأنه يترك الأموال والأولاد ويذهب إلى العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

لماذا أتى الله بهذه الآية بعد أن حذرنا من أن نُعجَبَ بأموال المنافقين وأولادهم ؟ لأن هذه ليست نعمة لهم ولكنها نقمة عليهم ، وأراد الحق